

المحاضرة الأولى:

المناهج المعاصرة في تحليل العلاقات الدولية

تمهيد:

عرف حقل العلاقات الدولية منذ نشأته تطورا وتعددا في مناهجه ونظرياته وذلك وفقا لتطور وتجدد الظواهر السياسية، حتى أصبح علما ذي تراكم معرفي من النظريات والمناهج. كل منها يصلح لتفسير نفس الظاهرة الدولية من زاوية ورؤية سياسية معينة تختلف كل منها على الأخرى في منطلقاتها المنهجية والنظرية. كذلك في النتائج التي يمكن التوصل إليها ومن المتعارف عليه أن كل منظور ومنهج يظهر ليسود في ظل أوضاع دولية محددة حين يكون قادر على دراسة وتحليل العلاقات الدولية، ويتضح أنه الأكثر ملائمة لتفسيرها. لذلك فإن متابعة الأوضاع والمتغيرات الدولية المعاصرة أوضحت أن المناهج التقليدية ومتغيراتها المختلفة لم تكن لترقى إلى القدرة على تفسير الظواهر الدولية في ظلّ المتغيرات المعاصرة وعجزها على استيعابها والتنبؤ بها، فضلا عن النقائص المنهجية التي تعاني منها سواء على المستوى المفاهيمي أو على مستوى وحدة التحليل أو على مستوى المنهج العلمي المتبع في دراستها وتحليلها للظاهرة الدولية موضوع بحثها¹. ومن ثم ظهرت الحاجة إلى مناهج بحث جديدة تتماشى وتواكب التطورات والتحولات والاهتمامات الدولية الجديدة يطلق عليها مصطلح المناهج المعاصرة والتي سنعرضها من خلال المحاور التالية:

¹ عبد الناصر جندلي، التنظير في العلاقات الدولية بين الاتجاهات التفسيرية والنظريات التكوينية، (الجزائر: دار الخلدونية، 2007)، ص 279.

المحور الأول: المنهج السلوكي في دراسة العلاقات الدولية

1- الأصول التاريخية للاتجاه السلوكي:

تعود الأصول التاريخية للاتجاه السلوكي في العلاقات الدولية خصوصا وفي العلوم السياسية هو عموما إلى الأعمال العلمية لمدرسة شيكاغو الأمريكية التي كانت من أهم الأبحاث التي ساهمت في بلورة وتطوير الاتجاه السلوكي، ولعل أبرز مفكرها شارلز مريام **Charles Merriam** الذي قدم دراسة بعنوان الجوانب الجديدة السياسية **New aspects of politics** سنة 1925 والذي دعى فيه إلى ضرورة اعتماد منظور سيكولوجي في تحليل الواقع السياسي مثلما هو الشأن في علم الاجتماع وتحويل علم السياسة إلى التركيز على دراسته السلوك الواقعي للأفراد بدلا من تحليل المؤسسات والدساتير وآراء الفلاسفة.¹ إضافة إلى ضرورة استخدام أدوات ومقتربات جديدة في التحليل السياسي ناهيك عن استعمال الإحصاء كأداة هامة للدراسات الامبريقية انتشرت بشكل واسع النطاق بالولايات المتحدة الأمريكية آنذاك.

فبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وما أفرزته من حالة الفشل التي أصابت العديد من الدول الأوروبية وانتشار النظم السياسية الفاشية والدكتاتورية أدرك الباحثين عدم جدوى الإقتربات التقليدية وعدم فعاليتها في فهم الواقع وتفسيره، وفي نفس الوقت كان هناك إدراك متزايد لدى الباحثين الأمريكيين لأهمية ضرورة تبني المداخل السلوكية وأدواتها في تحليل الظواهر السياسية والاجتماعية، وذلك ما فعلته الجمعية الأمريكية للعلوم السياسية **APSA** التي انبثق منها مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية سنة 1923.² **Social science Research Council (SSRC)** وكان أول رئيس له عالم السياسة الأمريكي شارلز مريام

¹ خضر محمد عارف، ابستمولوجيا السياسة المقارنة النموذج المعرفي-النظرية المنهج، (بيروت، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2002)، ص 246.

² محمد شلبي، المنهجية في التحليل السياسي المفاهيم، المناهج، الافتراضات والأدوات، (الجزائر، دار هومة، 2002)، ص 126.

ثم تبعه تلامذته رواد المدرسة السلوكية من أمثال هارولد لاسويل وغابريال ألموند وهربت سيمون وديفيد ترومان.

على الرغم من أن المدرسة السلوكية بدأت أعمالها على المستوى الفكري والمؤسسي مع مطالع القرن العشرين، إلا أنها تأخرت عن ذلك في حقل الدراسات السياسية في إرساء قواعد التحليل السلوكي بشكل بارز فيها كان مع الحرب العالمية الثانية، حيث هيمنت السلوكية على مختلف الحقول العلوم الاجتماعية.

وقد كان للحرب العالمية الثانية تأثير إيجابي في تطوير الاتجاه السلوكي من خلال تزايد الاهتمام بالمحاورات بين الاتجاهات النظرية الأساسية للعلاقات الدولية والدراسات والأبحاث بشأن الواقع السياسي الدولي الذي أفرزته الحرب فضلا عن ظهور مجموعة من الخبراء والمحللين التابعين لمجلس البحوث الاجتماعية تختص بدراسة السلوك السياسي لكل الفاعلين في السياسة العالمية وكانت مهمتها تطوير النظريات والمناهج في ميدان العلوم السياسية بصفة خاصة وميدان العلوم الاجتماعية بصفة عامة.

غير أن الدراسات والأبحاث السياسية والاجتماعية السلوكية برزت في إطار نظري ممنهج في منتصف الخمسينات وتبلورت بشكل أساسي في الستينات من القرن العشرين حيث عرفت العلاقات الدولية ثورتها الكبرى الأولى على المناهج الوصفية التقليدية (الواقعية والمثالية وغيرهم) التي هيمنت على الدراسات السياسية لأكثر من أربعة عقود متتالية باعتبارها لم تستعمل مناهج علمية وخاصة الكمية في أبحاثهم ولم يهتموا في تقديم فرضيات واختيارها بشكل مقارن وبناء نماذج أو نظريات تقوم على مفاهيم وفرضيات محددة بدقة ومترابطة منطقيا¹، وظهر التحول مع السلوكية نحو المناهج العلمية القائمة على الإحصائيات وساهم ذلك في التقدم التكنولوجي السريع وما تبعه من انتشار واستعمال الحواسيب

¹ ناصيف يوسف حتي، النظرية في العلاقات الدولية، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1985)، ص 40.

الالكترونية والرياضيات وأساليب استطلاع الرأي العام والمقابلات وتحليل المضمون وغيرها من أدوات ووسائل تخزين المعلومات.

سعى الاتجاه السلوكي منذ نشأته إلى تشكيل إطار مفهوماتي نظري تحليلي للعلاقات الدولية وليس وصفيًا وليس خاصًا كليًا وليس جزئيًا تفسيريًا وليس معياريًا قيميًا، معتمداً في ذلك على التالوث الوظيفي الوصف، التفسير والتنبؤ، والتالوث البعدي كيف كان؟ وكيف أصبح؟ وكيف سيكون؟ الاتجاه السلوكي لا يكتفي بمعالجة وتحليل السلوك الدولي كما هو في الواقع فحسب، وإنما كما يجب أن يكون عليه هذا السلوك مستقبلاً أيضاً¹. أي انطلاقاً من التنظير للواقع للوصول إلى نتائج علمية دقيقة وإن كانت تتصف بالنسبية نظراً للتغيير الزمني والمكاني للظاهرة السياسية محل الدراسة.

بناءً على ما سبق يمكن القول أن الاعتبارات التي ذكرناها أنفاً ساهمت بشكل كبير في بلورة معالم وأسس الاتجاه النظري الجديد للعلاقات الدولية أُنذاك ألا وهو الاتجاه السلوكي بشقيّ السلوكية وما بعد السلوكية، وإن كانت هذه الأخيرة جاءت على أنقاض الأولى من خلال مراجعتها النقدية لها، ومع ذلك تعتبر ما بعد السلوكية المكملّة وامتداد المدرسة السلوكية.

أولاً: تعريف الاتجاه السلوكي:

السلوكية حركة فكرية تعتمد السلوك كوحدة للتحليل فهذا الاتجاه يحاول التقرب من الظاهرة السياسية عبر السلوك بالبحث عن تفسير الجوانب الإمبريقية للحياة السياسية معتبراً الإنسان جوهر النشاط السياسي وذلك بواسطة مناهج واقتربات ومعايير للتحقق واختبار الصدق أو صحة الافتراضات وفق مبادئ وقواعد محددة وتقاليده ومقومات البحث الإمبريقي الحديث أي أن المنهج السلوكي يسعى إلى جعل الدراسة السياسية أكثر علمية².

¹ عبد الناصر جندلي، مرجع سابق، ص 279.

² عبد الغفار رشاد، قضايا نظرية في السياسة المقارنة، (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، 1993)، ص 98.

تجدر الإشارة إلى أن السلوك السياسي لا يقتصر على الفعل السياسي الملاحظ فقط بل يتضمن عناصر أخرى كالإدراك والحوازر المتصلة بالمواقف المحددة لهوية صانع القرار السياسي ومعتقداته وطلباته وقيمه وأهدافه.

وبالتالي طرح الاتجاه السلوكي وحدات جديدة للتحليل السياسي وبذلك تم تجاوز وحدات التحليل السابقة التي كانت ممثلة في الدولة أو الحكومة أو المؤسسة إلى وحدات تحليل استوعبت السابق دون أن تلغيه حيث جعل هذا الاتجاه من السلوك على مستويين النظام الدولي والفرد كوحدة تحليل أساسية له¹. هذا ويركز دعاة الاتجاه السلوكي على نموذجين هما نموذج النسق الدولي ونموذج اتخاذ القرار وكل منهما يركز على مستوى معين للتحليل.

تعتمد المقاربة المنهجية للاتجاه السلوكي على استخدام مناهج وأطر علمية في ثالث منهجي يتكون من المنهج التاريخي، المنهج المقارن والمنهج الإحصائي، حيث استعمل المنهج الأول لمعرفة طبيعة الظاهرة السياسية ومكوناتها الأساسية والتزود بمعلومات تاريخية، وتشمل المنهج المقارن لتمكين الباحثين من دراسة الأبعاد المختلفة للظاهرة الدولية ومسايرة التطورات العلمية والدقة والقدرة على التنبؤ لما تؤول إليه الظاهرة². وهي بذلك تكون قد أحاطت بمختلف الأبعاد الزمنية للظاهرة السياسية.

وفيما يتعلق بمناهج ووسائل البحث جمع البيانات والمعلومات يذهب الاتجاه السلوكي إلى استعمال قواعد ومناهج علمية تقوم بمجملها على القياس الكمي للمتغيرات أبرزها التحليل المقارن والتحليل الكمي القائم على القياس الكمي بأشكاله الرياضية المختلفة وتحليل المضمون والمسح العام أو ما يسمى بالمحاكاة ولاسيما في مجالي الدراسات الإستراتيجية والدراسات الدبلوماسية ودراسة الحال للتوصل إلى استنباط الفرضيات³.

¹ نصر محمد عارف، مرجع سابق، ص 260.

² عبد الناصر جندلي، مرجع سابق، ص 285-286.

³ ناصيف يوسف حتي، مرجع سابق، ص 43.

يتميز الاتجاه السلوكي بمجموعة من الخصائص التي تميّزه عن غيره من الاتجاهات التقليدية في النقاط التالية: ¹

- أخذ علم السياسية بعد ذلك الاقتراب السلوكي عدة مفاهيم والمناهج العلمية من عدة فروع علمية اجتماعية وإنسانية وخاصة منها علم الاجتماع السياسي وعلم النفس الاجتماعي والأنثروبولوجيا، وبالتالي بفضل الاتجاه السلوكي أصبحت العلاقات الدولية علماً مركباً من جهود العديد من علماء ومنظري العلوم الاجتماعية والإنسانية على حدّ سواء ويتميز بالدقة والمرونة، ومن الناحية المنهجية ويتمحور منهجها حول جمع المعلومات والمعطيات والبيانات وتنظيمها وترتيبها ومعالجتها كميًا.

- تزايد الاهتمام بالأساليب والدراسات الكمية واستطلاعات الرأي العام وأساليب القياس الأخرى في أدبيات الصراع والتكامل الدوليين باعتبار أنّ هذان الموضوعان هما المعيارين الأساسيين لكي تكون علم العلاقات الدولية، وكذا تركيز السلوكيون على الدراسات المقارنة لتوسيع قاعدة المعلومات عبر مقارنتهم بين الظواهر القديمة والظواهر المعاصرة.

- إضفاء الصبغة العلمية على الدراسات السياسية إذ يحاول الاتجاه السلوكي أن يكون إطار مفهوماتياً، منهجياً نظرياً وتحليلياً متماسكاً في العلاقات الدولية.

كما يسعى الاتجاه السلوكي إلى بناء نظرية عامة وشاملة للعلاقات الدولية من خلال تحقيق مجموعة من الأهداف نذكر من أبرزها ما يلي: ²

- يرمي السلوكيون إلى إضفاء الصبغة العلمية على الدراسات السياسية والدولية من أجل جعلها أكثر دقة باستخدام أساليب وأدوات بحث مستعارة من العلوم التجريبية وعلى رأسها الأساليب الكمية.

¹ عبد الناصر جندلي، مرجع سابق، ص ص 282-283.

² المرجع نفسه، ص ص 284-25.

- يسعى السلوكيون إلى مقارنة مختلف أنماط السلوك في فترات متعاقبة ومتباينة بغية التوصل إلى المعرفة اليقينية بشأن الظاهرة محل الدراسة والتحليل، وهو ما يعني أن منهجهم هو عبارة عن ثالوث منهجي يتكون من المناهج العلمية التالية: المنهج التاريخي والمنهج المقارن والمنهج الإحصائي.